المكان والذاكرة في رواية "*هواجس الضفة الأخرى*": مقاربة أسلوبية نفسية

ميلود مصطفى عاشور* وإبراهيم محمد الزوام*

تاريخ الاستلام: 2026.07.28، تاريخ القبول: 2026. 08. 10م، تاريخ النشر: 2026.09.30

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن تجليات المكان والذاكرة في رواية هواجس الضفة الأخرى لعبد السلام سنان، في ضوء الأسلوبية النفسية، بوصفها منهجًا يربط بين البنية اللغوية للنص والأبعاد النفسية الكامنة فيه. وتنطلق الدراسة من فرضية مؤداها أن المكان في الرواية لا يؤدي وظيفة جغرافية أو وصفية، وإنما يتحول إلى فضاء نفسي تتجسد فيه الهواجس وصراع الذات مع الواقع، كما أن الذاكرة تسهم في بناء هذا الفضاء من خلال استعادة التجارب الفردية والوجدانية للشخصيات في عالم الرواية. واعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي في قراءة النص، مستندة إلى مقولات الأسلوبية النفسية في تحليل البنية المكانية والزمنية والكشف عن دلالاتها النفسية. وخلصت الدراسة إلى أن ثنائية (الزقاق/الضفة الأخرى) تشكل المرتكز المكاني الرئيس في عالم الرواية، وأن الأمكنة والذاكرة تتفاعل فيما بينها، كما وظف الكاتب عناصر المكان والذاكرة لتحويل فعل الكتابة إلى آلية لـ "ترميم الذات" وتفريغ الشحنات الوجدانية المأزومة، مما منح الرواية خصوصية أسلوبية تمزج بين جزالة اللفظ وعمق الرؤية النفسية.

الكلمات المفتاحية :عبد السلام سنان، الأسلوبية النفسية، المكان، الذاكرة.

* أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية كلية اللغات، جامعة المرقب mmashur@elmergib.edu.ly

* أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية كلية الآداب، جامعة المرقب emalzwam@elmergib.edu.ly

Place and Memory in *Hawājis al-Ḍiffah al-Ukhrā*: A Psychological Stylistic Approach

Milood Mustafa Ashur and **Ibrahim Mohamed Alzwam**

Received: Jul. 28, 2026; Accepted: Aug. 10, 2026 Puplished: Sep. 30, 2026

Abstract:

This study investigates the manifestations of place and memory in Hawājis al-Ḍiffah al-Ukhrā (Obsessions of the Other Shore), a novel by Abd al-Salam Sinan, through the lens of psychological stylistics, an approach that examines the relationship between the linguistic structure of a text and its underlying psychological dimensions. The study is based on the assumption that place in the novel does not merely serve a geographical or descriptive function; rather, it is transformed into a psychological space in which inner obsessions and the self's conflict with reality are embodied. Memory likewise contributes to the construction of this space through the recollection of the characters' personal and emotional experiences within the fictional world. Adopting a descriptive-analytical approach, the study draws on the principles of psychological stylistics to analyze the spatial and temporal structures of the novel and to explore their psychological significance. The findings reveal that the binary opposition of the alley/the other shore constitutes the central spatial framework of the narrative. They further demonstrate that place and memory interact dynamically, while the novelist employs both as literary devices that transform the act of writing into a mechanism of "self-restoration" and the release of emotionally charged experiences. This endows the novel with a distinctive stylistic quality that combines linguistic eloquence with profound psychological insight.

Keywords: Abd al-Salam Sinan, Psychological Stylistics, Place, Memory

مقدمة

تعتبر رواية "هواجس الضفة الأخرى" للروائي الليبي عبد السلام عمر سنان عملاً سردياً، انتهج فيها الكاتب أسلوب اللغة الشعريّة عاليةِ الانزياح. وينتمي سنان ـ استناداً إلى سيرته المهنية والإبداعية ـ إلى جيل من الكتّاب الليبيين الذين صهروا خبراتهم العلمية في بوتقة الأدب؛ إذ تنوعت مشاربه بين التعليم والتربية، ثم التفتيش التربوي، ثم مدققاً لغوياً لدى مكاتب وزارة العدل، وصولاً إلى تأليف معجم مفردات قرآنية؛ هذا التنوع في التكوين العلمي والثقافي للكاتب مكنه من إنتاج نصٍ روائيٍّ يتسم بمتانة لغوية وعمق تأملي للقضايا والأفكار، وهذا نلمسه في روايته هذه وكذلك في مثل مجموعته القصصية "معارج البوح" وروايته المتوجة بجائزة لوتس سنة (2023م) رواية "إرث الرماد"

ورغم هذا التميز الإبداعي، لا يزال منجز سنان يفتقر إلى قراءات نقدية معمقة تواكب عمقه الجمالي، وهو ما تحاول هذه الدراسة فتح بابه عبر هذه المقاربة الأسلوبية، حيث تسعى إلى تتبع تجليات المكان والذاكرة في الرواية، والكشف عن وظائفهما النفسية والدلالية في ضوء الأسلوبية النفسية.

مشكلة الدراسة

تنبع مشكلة الدراسة من محاولة الكشف عن الكيفية التي يوظف بها عبد السلام سنان اللغة السردية في بناء الأمكنة لتتحول من فضاء جغرافي خارجي

إلى فضاء نفسي مشبع بالذكريات. وذلك للكشف عن الدور الذي تؤديه البنية اللغوية في استحضار الأمكنة واستعادة التجربة الوجدانية، بما يعكس الهواجس النفسية للشخصيات ويمنح المكان أبعاده الرمزية والدلالية في رواية هواجس الضفة الأخرى.

أسئلة الدراسة تسعى الدراسة إلى الإجابة عن الأسئلة الآتية:

1. كيف يتشكل الفضاء المكاني في الرواية نفسياً وأسلوبياً؟
2. ما الدلالات السيكولوجية لثنائية (الزقاق/الضفة الأخرى)؟
3. كيف تسهم الذاكرة الاسترجاعية في بناء وهيكلة هذا الفضاء؟

أهداف الدراسةتهدف الدراسة إلى:

1. الكشف عن الوظائف النفسية والدلالية للمكان.
2. بيان أثر الذاكرة في تشكيل العالم الروائي.
3. تحليل العلاقة الجدلية بين المكان والذاكرة.

منهج الدراسة

تعتمد الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، مستفيدة من آليات الأسلوبية النفسية في تحليل البنية المكانية والزمانية، والكشف عن علاقتها بالتجربة النفسية

التي يجسدها النص الروائي، من خلال ربط الظواهر الأسلوبية بدلالاتها النفسية، واستنطاق ما تنطوي عليه الأمكنة والذاكرة من وظائف رمزية وشعورية.

الدراسات السابقة

نلحظ ندرة الأطروحات والرسائل الأكاديمية والأبحاث والدراسات العلمية المحكمة حول منجز عبد السلام سنان، ما يستدعى رصد التلقي النقدي والمقالات الصحفية في المدونات الإلكترونية، ومع هذا لا نقف سوى على ثلاث قراءات نقدية حول رواية هواجس الضفة الأخرى نشرت على موقع بلد الطيوب هي:

الأولى؛ قراءة مهند سليمان (2021م): بعنوان " بين الشعر والرواية مسافة لهواجس سنان" ورصد فيها التداخل الأجناسي بين الشعر والسرد، وتتبع الأبعاد النفسية لشخصية "شاهين". وهو مقال يتقاطع مع هذه الدراسة في ملامسة أبعاد المكان وسيكولوجيا الشخصيات.

أما **الثانية** فهي قراءة ناصر أبو عون (2026م) وهي بعنوان "عبد السلام سنان.. شِعرية الومضة في لُجَّة الغموض" وركز فيها على جماليات الأسلوب كـ (المونتاج السينمائي، والمونولوج الداخلي) كقناة لتفريغ شحنات اللاوعي، مع توظيف المرأة معادلاً موضوعياً لتجاوز الألم الإنساني. وتفيدنا في ربط المونولوج بالتحليل النفسي وتجليات الذاكرة.

والثالثة؛ قراءة ميلود عاشور (2026م) :الموسومة بـ "من هواجس الضفة إلى يقين البوح"؛ وقدمت مقاربة لـ (اللاشعور المكاني والأبعاد النفسية) في نص الكاتب.

ورغم القيمة النقدية لهذه القراءات، إلا أنها ليست وفق تحليل منهجي صارم. ومن هنا تسعى الدراسة الحالية لسد هذه الفجوة بتقديم مقاربة أسلوبية نفسية تفكك بنيتي (المكان والذاكرة) وعلاقتهما الجدلية بالتشكيل اللغوي والدلالة السيكولوجية في رواية "هواجس الضفة الأخرى".

تمهيد

تقوم الأسلوبية النفسية على منطق التفاعل بين الدرس الأسلوبي والتحليل النفسي؛ حيث تسعى إلى تجاوز الوصف اللغوي المحض للنص الأدبي إلى الكشف عن الأبعاد النفسية الكامنة في البنية الأسلوبية والخطاب السردي. وقد ارتبط تشكل هذا الاتجاه بالتطور الذي عرفته الدراسات النفسية منذ أعمال سيغموند فرويد، ولا سيما بعد صدور كتابه الشهير "تفسير الأحلام" سنة 1900م، حيث لم يعد النص الأدبي يُنظر إليه بوصفه بناءً لغويًا أو زخرفًا بلاغيًا فحسب، بل غدا مجالًا للكشف عن الرغبات والصراعات اللاواعية والرموز

النفسية الكامنة خلف الخطاب؛ إذ ارتبط الأدب، في التصور الفرويدي، بآليات الحلم والتسامي والتعبير الرمزي عن المكبوتات [1].

ويشير محمد قراش إلى أن فرويد وظّف "الطاقة اللاشعورية" في تفسير النصوص الأدبية وربطها بالبنية النفسية العميقة للمبدع [2]. وهذا التصور نجده عند عز الدين إسماعيل حيث يرى أن الدوافع النفسية للإبداع الأدبي لا تختلف في جوهرها عن المنطلقات النفسية للحلم؛ حيث يقول: "فالعمل الفني إذن تدفع إليه أسباب هي التي تدفع إلى الحلم، ويحقق من الرغبات المكبونة في اللاشعور ما يحققه الحلم، وهو كذلك يتخذ من الرموز والصور ما ينفس عن هذه الرغبات، ويخلق بين هذه الرموز أو الصور علاقات بعيدة وغريبة في الوقت نفسه. ومن هنا تأتي المتعة التي يجدها الفنان في إخراجه عمله الفني إلى الوجود"[3].

إن غاية القراءة النفسية للنص الأدبي تتمثل في الكشف عن المعاني المضمرة المترسبة في أعماقه، واستجلاء ما تحجبه البنية النصية من دوافع ورغبات مكبوتة، عبر إرجاعها إلى مرجعيات اللاشعور وقضايا الكبت والصراع النفسي.

1 . ينظر: خياط، خالد. الدراسة التحليلية النفسية للقصيدة الشعرية. مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري، الجزائر، المجلد 23، العدد 1، يونيو 2012، ص 41

2 . ينظر: التحليل النفسي وتفسير الفن والأدب، مجلة حقائق للدراسات النفسية والاجتماعية، المجلد 5، العدد 18، 2020، ص 108

3 . إسماعيل، عز الدين. (1984). التفسير النفسي للأدب (ط. 4). مكتبة غريب ص: 40

ويؤكد الدكتور عز الدين إسماعيل في كتابه "التفسير النفسي للأدب" على هذه الغاية الجوهرية للمنهج النفسي، حيث يرى أن الفائدة الحقيقية للناقد تكمن في استخدام نتائج التحليل النفسي من أجل "إلقاء مزيد من الضوء على العمل الفني واستكشاف أبعاد التجربة أو التجارب التي يقدمها، وتفسير الدلالات المختلفة التي تكمن وراء الأعمال الفنية"[1]

وقد ظهر أثر هذا التصور في الدراسات الأسلوبية الحديثة، خاصة مع اللغوي والأسلوبي السويسري شارل بالي، أحد أبرز مؤسسي الأسلوبية التعبيرية، الذي ربط اللغة بالقيم الانفعالية والتعبيرية للمتكلم وجعل الوظيفة التعبيرية منطلقًا لفهم الظواهر الأسلوبية. ثم جاء الناقد والأسلوبي النمساوي ليو سبيتزر ليؤكد أن التفاصيل اللغوية والأسلوبية يمكن أن تكشف عن الرؤية الداخلية للنص والمبدع، وأن الانطلاق من الجزئيات الأسلوبية قد يقود إلى فهم البنية النفسية والفكرية العميقة للعمل الأدبي [2].

غير أن التحولات اللسانية والبنيوية في منتصف القرن العشرين أعادت النظر في هذا التصور؛ حيث عدّت الأسلوب نظامًا لغويًا ينبغي دراسته داخل النص ذاته بعيدًا عن المعطيات النفسية والسيرية. ومع ذلك، ظل أثر التصور النفسي للأسلوب حاضرًا في كثير من الدراسات التأويلية والثقافية الحديثة، التي

1 . نفسه. ص: 17

2 . ينظر: فضل علم الأسلوب. ص: 101

واصلت النظر إلى الأسلوب بوصفه فضاءً تتداخل فيه التجربة الشعورية بالبنية اللغوية والرؤية الفكرية.

ولم يكن هذا التصور بعيدًا عن التراث النقدي العربي؛ إذ تنبه عدد من النقاد القدامى إلى الصلة بين الحالة النفسية وجودة الإبداع، فربطوا بين الطبع والانفعال وتهيؤ القريحة وبين القدرة على إنتاج القول المؤثر [1]. غير أن الأسلوبية النفسية، في صورتها الحديثة، أفادت من مناهج التحليل النفسي ومن أدوات الأسلوبية اللسانية معًا، فغدت تهتم بدراسة التكرار والانزياح والإيقاع والحقول المعجمية وأنماط السرد بوصفها مؤشرات دالة على البنية الشعورية واللاشعورية الكامنة خلف النص.

ويقترب أحمد الشائب من التصور التعبيري للأسلوب حين يرى أن البنية اللفظية الظاهرة للنص ليست سوى انعكاس لبناء معنوي ونفسي سابق يتشكل في ذهن المبدع؛ إذ يؤكد أن "الأسلوب معان مرتبة قبل أن يكون ألفاظًا منسقة، وهو يتكون في العقل قبل أن ينطق به اللسان أو يجري به القلم"[2] ويكشف هذا التصور عن وعي مبكر بالعلاقة بين التشكيل اللغوي والتجربة الشعورية، وهي العلاقة التي ستصبح لاحقًا من المرتكزات الأساسية في المقاربات الأسلوبية ذات الاتجاه النفسي.

1 . ينظر: خفاجي، محمد، وآخرون (1992) الأسلوبية والبيان العربي، ط1. القاهرة، مصر: الدار المصرية اللبنانية. ص: 6

2 . الشائب، أحمد. (1991). الأسلوب. ط 8. مكتبة النهضة. ص: 40

ومن هذا المنطلق، تنهض هذه الدراسة حول رواية "هواجس الضفة الأخرى" عبر المنهج الأسلوبي النفسي؛ باعتباره منهجاً يتيح قراءة الانزياحات الأسلوبية والتراكيب الممتدة والتوترات التعبيرية بوصفها مؤشرات دالة على الصراع الداخلي للشخصيات، ويساعد على الكشف عن الكيفية التي تتحول بها التجربة الشعورية والانفعالية إلى بناء لغوي وجمالي داخل الخطاب الروائي؛ إذ يرى بيير جيرو أن الأسلوب يرتبط بوظيفة تعبيرية تكشف عن مواقف الذات وانفعالاتها من خلال الاختيارات اللغوية ونمط التراكيب [1].

المبحث الأول: النشأة وجدلية المكان والذاكرة

وُلد عبد السلام عمر سنان في مطلع عام 1956م بمدينة الخمس الليبية. وقد أسهمت هذه البيئة المكانية، بما تجمعه من عراقة الأثر وحداثة المدينة، في تشكيل الحس السردي والوجداني لدى الكاتب؛ إذ تحول المكان في كثير من نصوصه من كونه إطاراً جغرافياً إلى فضاء دلالي يرتبط بالذاكرة والهوية. فمثلا: يبرز وعي الكاتب ببيئته الأثرية في تشبيهه لبطل الرواية "شاهين" بـ "تمثال نصفي لشيخ روماني" قائم على عمود في مدينة لبدة، ويصفه السرد متأملاً: "نزع الشرطي نظارته برفق وأسند جبينه بيده ومسّد حاجبيه، كانت تلك سيماء الحزن العميق الذي كان يغمر الشرطي "شاهين "فكان بعيد الغور كتمثال

1 . ينظر: جيرو، بيير .(1994) .الأسلوبية ترجمة منذر عياشي، (الطبعة الثانية). مركز الإنماء الحضاري. ص: 79

نصفي لشيخ روماني – قائم على عمود في مدينة لبدة الأثرية الواقعة في ضاحية مدينة الخمس الليبية العريقة– أنعش طعم التبغ لحظاته وهو يصغي إلى ذاكرة تلك المصائب"[1].

ويكشف هذا التوظيف عن حضور المرجعية التاريخية والمكانية في بناء الصورة السردية، بما يمنح الشخصية بعدًا رمزيًا يتجاوز الوصف الخارجي.

كما يقيم النص تقابلًا بين فضاءات الرفاه والهامش الاجتماعي؛ إذ يقترن "فندق سيفيروس" بدلالات الاستقرار والترف، والمناسبات السعيدة. في حين يرتبط "الزقاق" بصورة التهميش والفقر، وهو ما يعكس التوتر الاجتماعي والنفسي داخل الرواية فـ(الزقاق/ والأكواخ) فضاءين دالين على البؤس والتهميش، حيث يسكن الفقراء خلف "جدران بائدة ... فبات همهم يحفر في الجدرانً ثقباً إلى اليأس، يمزجون الرغائب المسدلة برماد الأماني"[2].

ويمتد الفضاء المكاني في الرواية إلى عمق الجنوب الليبي؛ من وادي القطيفة وجبل "عافية" في هون، وصولًا إلى غدامس وبحيرة قبر عون، حيث يستحضر السارد جمال تلك الأمكنة بقوله: "أشاحت مدينة هون بفتنتها وأفردت أجنحة الكرم لاستقبال الوافدين إليها لينعموا بمشاهدة الكثبان الرملية الشاهقة الناعمة ويمتعوا إنظارهم بسحر وجمال وادي القطيفة المُحاط بالجبال السود

1 . سنان، عبد السلام عمر، (2020)، هواجس الضفة الأخرى. مكتبة طرابلس العلمية العالمية، ط 1، ص: 31

2 . سنان، مصدر سابق. ص: 2

الصخرية اللامعة وكذلك جبل عافية ... وقد أبهرتهم المدينة القديمة الموغلة في التاريخ ... غادرت العائلة مدينة هون بعد أن نقشت في ذاكرتهم أروع المشاهد وأجمل اللحظات"[1].

ويكتسب المكان هنا أبعادًا رمزية تتصل بالعزلة والتأمل والبحث عن السكينة، والعودة إلى الأصالة والتراث، مما يجعل الارتحال نحو الجنوب جزءًا يرتبط بالبنية الشعورية داخل مسار الأحداث في الرواية.

المبحث الثاني: سيميائية المكان وزمن الذاكرة

يقوم البناء المكاني في الرواية على تقابل دلالي بين فضاء (الزقاق) وفضاء (الضفة الأخرى)، بحيث يتجاوز المكان وظيفته الوصفية ليصبح عنصرًا كاشفًا عن التفاوت الاجتماعي والنفسي داخل النص، فمثلاً: يوظف سنان صورة الثلج بوصفها عنصرًا دلاليًا يكشف التباين بين الفضاءين (الزقاق/ والضفة الأخرى)؛ ففي حين يقترن الثلج في الضفة الأخرى بأجواء الترف والرفاهية واللعب. حيث قال: "على الضفة الأخرى فإن للزائر الأبيض طعمًا آخر، الفرصة سانحة للتزلج على بساطه الأبيض الناعم بواسطة ألواح الألياف الزجاجية، الأطفال ينعمون بلباس يمنحهم الدفء المنشود والأمهات يراقبن بفرح غامر حركات أطفالهن على تلك الألواح والسعادة التي ينغمسون فيها عند الصباح الملبد بالضباب الفضي"[2] فإنه في المقابل: "أماطتْ اللثام عن الوجه القبيح

1 . نفسه، ص: 164

2 . سنان، مصدر سابق، ص: 2

لبعض الأحياء الفقيرةُ المعدمة"[1] حيث يمثل الزائر الأبيض لساكني الزقاق صورة البرد والقسوة والمعاناة الاجتماعية

كما يعتمد النص السردي على التشكيلين الشمي والبصري في بناء الدلالة النفسية للمكان؛ إذ يرتبط الزقاق بروائح وأوصاف توحي بالكآبة والانغلاق، في مثل عبارة (رائحة الشاي المضرمة بالحزن الوفير). وفي المقابل، ترتبط الضفة الأخرى بصور أكثر صفاءً واتساعًا، من قبيل (الصباح الشفيف/ نوارس الاشتياق)، مما يعزز التقابل الشعوري بين الفضاءين.

وتتأسس البنية السردية في رواية هواجس الضفة الأخرى على تفاعل جدلي بين المكان والزمان؛ إذ يؤديان وظيفة دلالية تعكس الهواجس والقلق النفسي والرؤى التي تشكل عالم الرواية؛ ويمكن بيان ذلك كما يلي:

أولاً: البعد النفسي للمكان

تتوزع الأمكنة في الرواية وفق مستويات دلالية عدة منها:

أ. الزقاق:

يمثل الزقاق في الرواية الحيز الضيق المرتبط بمسقط رأس الكاتب وتكوينه الأول. يصفه النص بلغة تجمع بين القسوة والحنين: "كان الزقاق التعس يلفظ أنفاسه الأخيرة تحت وطأة الصقيع، ورائحة الشاي –المضرمة بالحزن الوفير– تنبعث من النوافذ التي شاخت"[2] فهنا ينسحب وصف المكان من المادي إلى

1 . نفسه

2 . سنان، مصدر سابق، ص: 7

السيكولوجي؛ فالنوافذ لا تتقدم في العمر فيزيائياً وتصل سن الشيخوخة كالإنسان، لكن الكاتب جعلها إنساناً أتت عليه الشيخوخة؛ لتعكس كهولة الذات وهرم الروح وتآكلها تحت المراقبة.

هكذا يتجلى الزقاق في المتخيل السردي لهذه الرواية وعاءً انفعالياً تكتنفه ذاكرة الوجع وحالة الاغتراب النفسي التي تعيشها الشخصية في مواجهة ماٍ مفقود. إذ عندما يصف الكاتب النوافذ بأنها "شاخت وتآكلت"، إنما هو يسترجع في الوقت نفسه ذكريات الألم، ولحظات تآكل الأحلام على ملامح خشب النوافذ. وهنا، يصبح المكان شريطاً متحركاً يشاهده البطل شاهين ويستعرض فيه ذاكرة مثقلة بصورة الأم المريضة ورائحة الشاي "المضرمة بالحزن"، الحزن الذي يمتد به إلى اللحظات التي "أحس فيها أن عينا والدته تنظران إليه بما يشبه الرجاء"[1] قبل أن تفارق الحياة وهو ما يزال في طفولته لا يعرف من المدينة سوى ذاك الزقاق.

ب. المدينة:

تبرز المدينة كفضاء متقابل تتصارع فيه ضفتان، حيث يقول السارد: "هنا في هذه المدينة الحائرة، يتجسد الترف والرغد الوفير في قصور الضفة، وهناك خلف الأسوار يُرسم الشقاء والبؤس في عيون العابرين"[2]. فالمدينة معقل التناقض

1 . نفسه. ص: 11

2 . نفسه. ص: 6

الطبقي. حيث يتجلى فيها التباين والصراع والبحث الدائم عن العدالة المفقودة. والكاتب يضفي صفة إنسانية مضطربة على المكان ("مدينة حائرة")؛ ليعكس حالة التشتت النفسي للشخصيات.

ج. المزرعة

تمثل فضاء التئام الجروح والسكينة، حيث يصفها السارد: "كانت المزرعة بمثابة الرئة التي يتنفس بها شاهين بعيداً عن ضجيج التحقيقات وفجاجة الزقاق، حيث الأشجار الكثيفة تعانق السماء في صمت مهيب"[1]. فالملاحظ هنا أن وظيفة المكان هي العزل (بعيدا) والوصل (يتنفس ويعانق) فالمزرعة هي مرادف من مرادفات الضفة الآمنة التي ينشدها المبدع للهروب من قلقه الوجودي.

د. ليبيا كوطن متخيل

يظهر الارتحال نحو الجنوب والمدن الأثرية كفعل تطهير، مثل قول فاطمة: "أرغب في السفر إلى ليبيا، إلى لبدة وغدامس، فكم أحن إلى رائحة التراب الذي لا يغدر"[2]

إن ذِكر الأماكن (الخمس، لبدة، قبر عون وغيرها) لا يهدف للتوثيق السياحي، بل يعبر عن الرغبة في استعادة الهوية المغتربة في مواجهة الحنين السيكولوجي وشتاء الغربة. فهذه الاستعادة للذكريات والعزم على الارتحال نحو

1 . سنان، مصدر سابق، ص: 69

2 . نفسه. ص: 73

الصحراء ومدن لبدة وغدامس، مدفوعة بكون هذه الأمكنة تمثل الفضاء الصامت النقي الذي من خلاله يتم ترميم الذات عبر الذاكرة الحسية؛ ففاطمة لا تنشد في الجنوب ترفيها وسياحةً، بقدر ما تبحث عن (رائحة التراب الذي لا يغدر) لتواجه به (شتاء الغربة) غربتها الجاثمة بردها القارص على صدرها.

حيث يقول الكاتب عن معاناة فاطمة في الغربة: يتداعى شريط ذكريات طفولتها ... فهي تحمل حباً وشغفا لزيارة عديد المواقع السياحية الأثرية التي تتمتع بها ليبيا دون غيرها والتي لم تسمح لها الفرصة قبلاً بزيارتها مع والدها قبل أن يتوفى"[1]

هذا الارتباط بين المكان الجغرافي (ليبيا/ المواقع الأثرية) وبين الذاكرة الأبوية؛ جعل من الأمكنة محفزاً لاستعادة زمن مفقود (الطفولة مع الأب)، كما يتحول الارتحال نحوه وزيارته إلى فعل ترميم للهوية المفقودة في الغربة؛ لأن هذه الذكريات في حقيقتها فعل انتماء وجداني، في مواجهة ثقل الاغتراب، وهي كسر لخطية الزمن الفيزيائي، حيث تتحرر فاطمة بالذكريات من أسر الهواجس، وقلق الاغتراب الوجودي، وتعيد زراعة جذور هويتها التاريخية وانتمائها للوطنها ليبيا.

هـ. الفضاءات المغلقة

يقول السارد: "الجدران في مكتب التحقيق كانت مرايا تعكس وجوه الخائفين، ولغة المحاضر تفتقد لدفء الحروف"[2]. إن ضيق المكان (مكتب التحقيق)

1 . نفسه. ص: 55

2 . سنان، مصدر سابق، ص: 23

يوحي بالشعور بالاحتجاز النفسي، ويعكس ثقل الشعور بالاغتراب في الحياة الواقعية.

ثانياً: شعرية الزمان

تتجلى شعرية الزمن في الرواية حالةً نفسيةً شعوريةً؛ فالسارد يصف نفسه بأنه "متورط في غُربة الزمن"[1] وشاخص في "جوف ساعة رملية"[2]

كما يتخذ الزمن في النص أبعاداً مادية قاسية، فهو يمتلك" نعالاً"[3] تسحق المشاعر، ويداً تمزق أشرعة العمر، ويصفه بأن له غباراً بائساً [4] يتراكم فوق الأجساد والذكريات. كما تتحول عقارب الساعة في الرواية إلى رمز للترقب والقلق؛ فهي تارةً تثير الشفقة، "تشفق على عقارب ساعة يدها"[5] للدلالة على الترقب والقلق النفسي. وتارةً أخرى تتحول إلى أداة تلوك اللحظات في "سكينة ليل مهادن"[6]

وتبرز شعرية الزمن في علاقته بالذاكرة، حيث يُوصف الزمن بأنه يعبث بكل من مرّ به، وتتحول فيه اللحظات إلى هواجس تتسكع على أرصفة الصمت

1 . نفسه. ص: 1
2 . نفسه
3 . نفسه. ص: 7
4 . نفسه. ص: 14
5 . سنان، مصدر سابق، ص: 4
6 . نفسه. ص: 16

والانتظار وتكتمل هذه الشعرية بربط الزمن بالمكان والتحولات النفسية، ليصبح الزمن في النهاية "متاهة متأججة تصفع اللحظات الجميلة"[1] وتبدد اليقين.

ويتجلى الزمن في الرواية في مستويين:

أ. **الـزمن الفيزيـائي الـدقيق:** حيث يحرص الكاتب على توثيق بعض اللحظات بصرامة ودقة: "كان فجر الجمعة الموافق الثاني من ديسمبر، حينما بدأ شاهين يقلب أوراق القضية، والبرد ينخر في أربعين عاماً من عمره"[2]. فهذه الدقة الزمنية (الساعة، اليوم، التاريخ، العمر) جاءت في سياق محاولة البطل اليائس للإمساك بزمام واقع متفلت.

ب. **الزمن الحلزوني:** يكسر النص خطية الزمن عبر تقنية الاسترجاع الزمني، ولا سيما عند استعادة ذكرى الأم: "تلك اللحظة من عام 1978م لا تزال تسكنني، كأن الزمن توقف عند عتبة الوداع المر"[3] حيث يؤكد هذا التداخل أن الشخصية تسكن الماضي بوجدانها بينما تعيش الحاضر بجسدها، مما يعزز حالة الاغتراب الزمني.

يتضح من توظيف الزمان والمكان في الرواية أن عبد السلام سنان لا ينشغل بسرد الأحداث بقدر ما يركز على بناء فضاءات مشبعة بالدلالات النفسية والوجدانية. فالأمكنة والأزمنة تسهم في الكشف عن التحولات الداخلية للشخصية

1 . نفسه. ص: 29

2 . نفسه. ص: 32

3 . سنان، مصدر سابق، ص: 15

ومساراتها الشعورية. فالانتقال من الزقاق إلى الضفة، ومن شتاء المدينة إلى دفء الصحراء، هو تعبيرٌ عن رحلة وجودية تسعى فيها الذات إلى تحقيق التوازن بين متطلبات الواقع وتطلعاتها الإبداعية والإنسانية.

الخاتمة

تشكل الرواية بنية من الهواجس المتضافرة، عبر بناء زماني ومكاني يقوم على ثنائية الضفتين: (الزقاق/المدينة، الفقر/الترف، الثلج/ الدفء، ضيق الزقاق/ رحابة الصحراء)، وهذا أدى إلى حالة من القلق تعكس تشتت الإنسان أمام واقع صعب ومتقلب، يُظهر حجم المعاناة مع ظروف الحياة القاسية وغير المستقرة

وعلى المستوى الأسلوبي، كشفت الدراسة عن لغة كاتب بارع ينحت لغته الروائية بخصوصية عالية؛ استثمر فيها الانزياحات والمفردات العربية الرصينة التي تجمع بين جزالة اللفظ وعمق المعنى، لتكون مرآة لعجز أبطاله النفسي ووسيلة لترميم أرواحهم المتعبة عبر تداخل السرد مع الخواطر الوجدانية.

نتائج الدراسة:

1. إن ثنائية (الزقاق/الضفة الأخرى) تشكل المرتكز المكاني الرئيس في عالم الرواية، وهذه الأمكنة في تفاعل دائم مع الذاكرة،
2. وظف الكاتب عناصر المكان والذاكرة لتحويل فعل الكتابة إلى آلية لـ "ترميم الذات" وتفريغ الشحنات الوجدانية المأزومة، مما منح الرواية خصوصية أسلوبية تمزج بين جزالة اللفظ وعمق الرؤية النفسية.

3. الزمن الحلزوني الاسترجاعي تقنية اعتمدها الكاتب لكسر خطية السرد وليعيد صياغة الماضي بوجدان الحاضر.
4. الذاكرة في الرواية لا تعمل في فراغ، بل هي **ذاكرة مكانية** بامتياز؛ فالمقومات المكانية مثل "الزقاق" و"المزرعة" و"مدينة هون" هي مستودعات للذاكرة وملاذاً للهوية.
5. كشفت الدراسة أن الذاكرة تؤدي دورًا محوريًا في بناء الدلالة المكانية؛ إذ تتحول الأمكنة، عبر الاستدعاء اللغوي، من إطار للأحداث إلى فضاءات نفسية تختزن التجربة الوجدانية، وتتجلى فيها مظاهر الاغتراب واستعادة الذات.

توصيات الدراسة

توصي الدراسة بما يلي:

- إطلاق مشروع وطني لجمع "الأعمال الكاملة" لعبد السلام سنان (المنشور منها والمخطوط)، وإعادة طباعة رواياته في طبعات جديدة.
- دعوة الباحثين لدراسة أدب سنان في رسائلهم العلمية؛ لما يمتلكه من ثراء لغوي وفكري يفتح آفاقاً واسعة للدراسات الرصينة

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

1. سنان، عبد السلام عمر، (2020)، هواجس الضفة الأخرى. مكتبة طرابلس العلمية العالمية، ط 1.

ثانياً: المراجع

1. إسماعيل، عز الدين .(1984) .*التفسير النفسي للأدب* (ط 4). مكتبة غريب.
2. جبري، شفيق. (1966). الأسلوب هو الرجل .*مجلة المجمع العلمي العربي*، .(3)
3. جيرو، بيير .(1994) .*الأسلوبية* ترجمة منذر عياشي، (الطبعة الثانية). مركز الإنماء الحضاري.
4. خفاجي، محمد، وآخرون .(1992) .*الأسلوبية والبيان العربي* (الطبعة الأولى). الدار المصرية اللبنانية.
5. خياط، خالد. (2012). الدراسة التحليلية النفسية للقصيدة الشعرية .*مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري قسنطينة، 23*.(1)
6. الشائب، أحمد .(1991) .*الأسلوب* (ط 8). مكتبة النهضة المصرية.
7. فضل، صلاح .(1985) .*علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته* .دار الشروق.
8. محمد قراش. (2020). التحليل النفسي وتفسير الفن والأدب: قراءة في الإسهامات التأسيسية لسيغموند فرويد.*مجلة حقائق للدراسات النفسية والاجتماعية، 5*.(18)